ارتقاء البشر المادى
وحاجتهم إلى الأخلاق
للأستاذ رشاد محمد محجوب

" يجب أن يحرر العلم من الاندفاع وراء نظريا ته العجيبة وحدها والرغبة فى تطبيقها فى أوسع مدى ، منسين كل ما يربط الناس بماضيهم ومثلهم السابقة ، من أفكار ونظم ، وليطبقوا قبل أن يقضوا على شىء من هذه الأشياء الى قيمة ذلك الشىء الأدبية والروحية " .

فؤاد سراج الدين باشا

إن ما يبدو لأول وهلة من تقدم عظيم للانسانية — حين توافرت لها أساليب الاختراع الآلى ومعجزات الصناعة وعجائب المادة — لا يدل على التقدم إلا من ناحية الوجود المادى فحسب . أما من ناحية المثل الاخلاقية والعقائد الانسانية والتقاليد المثالية ، أى من ناحية اعتداد الإنسان بالسلم المعنوى ، فقد يبدو أن الانسانية لم تتقدم تقدما يناسب مع تقدمها المادى . بل أكبر الظن أن الناس تأخروا إذا قيست منازعهم فى هذا العصر بالعصور التى نشأت فيها المبادىء الخلقية وقامت فيها الدعوات الدينية البريئة الطاهرة ، ويلوح لى أن الانسان نسى نفسه ليذكر الآلة ، وأشغل روحه ليعنى بالجهاز ، فتقدمت الآلات والأجهزة وتأخرت النفس والأخلاق وها هى ذى العلوم المادية تثب فى هذا العصر وثوبا يشبه الطفرة ، وتؤتى من الثمار اليانعة ، تسخيرها الطبيعة للانسان ، ما صارت به الدنيا كلها كأنها مدينة واحدة . وكأن أقطارها بيوت لهذه المدينة . وكأن شعوبها أسر لأمة واحدة . وها نحن أولاء نخاطب من مصر أهل عواصم أوربا بالمسرة ونسمع خطبهم وأحاديثهم وأغانيهم بالمذياع .

وليس فى الناس الآن من لا يرى آثار العلم المادى واضحة جليلة فى تسهيل الأعمال وتحسين الانتاج وتيسير النقل وحفظ الأبدان وفى كل وجه من وجوه المعيشة .

وإليك آلات الحصد والحياكة والطباعة والكتابة فقد ساعدت على تخفيض نفقات الأعمال . وهذه سفن البخار والقطر التجارية والكهربائية والبرق والمسرة واللاسلكى قد ربطت أرجاء المعمورة بعضها ببعض . وتلك أعواد الثقاب وزيت البترول والكهرباء المستخدمة فى الإنارة والتدفئة قد رفهت على الناس عيشهم وهيأت لهم أسباب النعيم . وهذه مواد التخدير والتطهير وأنواع الترياق قد حفظت على الانسان صحته وأخيرا يأتى دور المواصلات الجوية ، وهو دور سيكون له بدون شك خطورته البالغة .

ومن ثمة فقد خطت العلوم المادية خطوات واسعة جدا فى معارج التقدم والرقى . وبينما الحال كذلك فى العلوم المادية ، إذ الناس قد رجعوا القهقرى فى الآداب والفضائل على

نسبة عكسية مطردة لارتقائهم فى العلوم المادية واستثمارهم ثمراتها ، فهم يزدادون اسرافا فى الرذائل ، وجرأة على اقتراف الجرائم ، وانتهاكا فى الشهوات البهيمية ، حتى كادوا يفضلون الاستباحة المطلقة على كل ما يقيد الشهوات من دين وخلق وعقل وعرف .

ويستعمل الناس جميع ثمرات العلوم المادية فى الحرب التى تدمر فى أشهر معدودة ما شيدته العصور المتعاقبة من صروح العمران . وهى لا تكتفى بذلك ، بل تفنى الملايين من غير المحاربين كالنساء والأطفال والشيوخ وتستنفد ثروات شعوبها فى هذه السبيل . فالعالم البشرى كله فى شقاء من هذه السياسة .

والرأى الذى يخرج به الانسان من كتاب فوضى العالم ومسئولية العلم لوليام دكدوجال ، هو أن علم الأخلاق والتشريع والاقتصاد والتاريخ والنفس وخلافها من العلوم الأدبية ، يجب أن تكون قبل الباحثين والناشئين ، اذا رغبنا فى الإبقاء على حضارتنا هذه وحفظ التوازن الضرورى بين معلومات الانسان . ويرى صاحب كتاب فوضى العالم ومسئولية العلم ، أن ضعف نظام الأسرة وانتشار الجريمة وتفشى الرشوة وما ماثلها من مظاهر القص والخلل الاجتماعى فى الحضارة الراهنة ، ما كل ذلك إلا النتائج المباشرة لتقدم البحث العلمى واستفحال أمر الآلة الميكانيكية .

ومن استقراء تاريخ الحضارة المادية ، نرى أن هذه الشرور نمت بنمائها فكان هذا برهانا على أن العلوم المادية ، غير كافية لجعل الناس سعداء فى هذه الحياة بل يجب أن يتزود الانسان بالأخلاق فهى السلاح لأدواء هذه الحضارة والترياق لسمومها .

من أجل هذا وجب على علماء الأخلاق ورجال الاجتماع أن يوسعوا الخطى ويتقدموا إلى الأمام حتى يرقى علم السلوك البشرى ويصعد إلى قمة المجد التى بلغتها العلوم المادية ، وحتى تتوازن الكفتان — كفة العلوم المادية وكفة العلوم الخلقية — وإلا لعادت علينا المخترعات العلمية بالضرر أكثر منها بالنفع وعجزنا عن كشف أسرار الحياة وخفايا النفوس .

ويسرنى أن أختم هذه الكلمة بأنه قد قامت عدة فلسفات فى الشرق والغرب ضد أسس الحضارة المادية الصناعية التى تجتاح العالم وتدعو هذه الفلسفات إلى أن يتزود الناس بالأخلاق . ويمثل هذه الفلسفة فى المانيا Spingles فى كتابه تدهور العالم الغربى ، وفى أمريكا وليم جيمس فى كتابه Varieties ofea Religious EXperience ، وفى فرنسا هنرى برجسون فى كتابه ينبوعا الأخلاق والدين Les Deux Sources de Morale et de la religion وفى انجلترا رسل Russell فى مؤلفاته الفلسفية والاجتماعية الكثيرة ، وفى الشرق السيد محمد رشيد رضا فى كتبه المعروفة التى منها تفسير المنار والوحى المحمدى .

رشاد محمد محجوب